ألحان صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

جيتنجالى كلمة هندية بنغالية معناها «القرابين الغنائية» وهى أناشيد صوفية تبلغ ١٠٣ نشيد ، نظمها طاغور فى البنغالية ثم نقلها بنفسه إلى الانجليزية ، وشهرتها فى الأدب العالمى كشهرة رباعيات الخيام ، وهى تمثل الروح العالية على فلسفة طاغور من جهة ، والطبيعة الصوفية الميزة للبوذية من جهة أخرى . وسننشرها كلها مترجمة بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ١ —

أنت خلقتنى أبدياً ، تلك مشيئتك . وهذا الحطام الفانى — جسمي — أنت تفرغه مرة ومرة ثم تملأه بالحياة الغضة

هذا الناى الصغير أنت علوت به وهبطت ، ثم وقّعت عليه أنغاماً سحرية خالدة ، وحين لمست يداك قلبي الضعيف لمسة إلهية شاع فيه السرور وانبعث منه لحن أخاذ ، وبين يدىّ الضعيفتين استقبلت آلاءك العظمى ، والأعوام تتصرم وأنت ما تزال تحبونى وفى قلبى شوق وطمع

— ٢ —

وحين أمرتنى أن أرتل نشيدى خُيِّل إلي أن قلبى يهتز من أثر الفرح والكبرياء معاً ؛ ثم رحت أتوضح وجهك فاغرورقت عيناى بالدموع

كل ما فى حياتى من شدة وضيق يذيبه لحن جميل ، وصلواتى تنشر علىّ جناحين رفيقين كما يفعل الطير الطروب وهو يدف بجناحيه فوق أمواج البحر

أنا أوقن أن أغانىّ تطربك ، وأنى حين أغنى أكون فى حضرتك وبرغم أن أغانىّ وهى تعلو مصعدة تكاد تبلغ قدميك ؛ فأنا لا أستطيع أن أصل إليها

لقد غُمّ علىّ حين سيطرت علىّ نشوة التغريد ، فناديتك : يا صديقى ؛ وأنت إلهى

— ٣ —

لست أدري كيف ترسل ألحانك ، يا إلهى ! وأنا — دائماً أتسمع فى لهفة

إن نور موسيقاك يضيء العالم ، وأنفاسها تنقل من سماء إلى سماء ، وسَكْبها المقدس يحطم العوائق الصلبة لينفذ

لقد تعشق قلبى أن يسمع ألحانك ، ولكن عبثاً حاول أن يظفر بصوت . سأتحدث حديثاً لا يحور إلى أغنية . بل إلى صيحة اليأس . آه إن ألحانك الأبدية قد جذبت إليها قلبى ، يا إلهى

— ٤ —

يا روح حياتى سأحفظ — دائماً — جسمى طاهراً لأننى أعرف أن لمساتك الرفيقة تحوطنى

سأحول — دائماً — بين أفكارى وبين الأكاذيب ، لأنك وأنت الحق ، بعثت فى قلبى شعاع الحق

سأنزع — دائماً — عن قلبي الرذائل ليظل حبي لك طاهراً فأنت تتربع فى قلبى

ثم أجعل همى أن أكشف أمامك عن كل ما أعمل ، لأنك أنت الذى تسبغ على القدرة على العمل

— ٥ —

أنا أسألك لحظة فيها الرضا أجلس فيها إلى جانبك ، وأؤجل ما بين يدى من عمل إلى ما بعد

إن قلبي لا يستقر ولا يهدأ إن حرمت النظر إلى طلعتك لأغتمر فى لجة من العمل المضنى ... لجة لا شاطىء لها

اليوم تفح الصيف أول زفراته لدى نافذتى ، والنحل بين الزهور يرتل أنغامه

هذا وقت أجلس فيه بإزائك هادئاً ؛ وفى هذا الصمت والفراغ والهدوء ، أترنم بأناشيد الحياة المقدسة

— ٦ —

اقطفْ هـذه الزهرة الصغيرة — يا سيدى — وخذها . لا تستأن ! فأنا أخشى عليها الذبول والسقوط ؛ لعلها لا تجد مكاناً في بستانك ، ولكن شرِّفها بلمسة بنانك ، فأنا أخاف أن تنطوي الأيام قبل أن أستطيع تقديمها لك هدية

إن لونها ليس أخاذا ، وريحها ليس نفاذا ؛ ولكن اقطفها فقد يكون فيها النفع ... اقطفها حين تسنح الفرصة

— ٧ —

لقد نزعت عن لحني الزخرف ، فما فيه برقشة ولا تنميق ؛ لأن زخرف القول يفسد ما بيننا ، ويحول بيني وبينك ، ورناته تخفي عني همساتك

إن عبارات الصلف فى شعري تتلاشى أمام ناظريك يا إله الشعر . أنا جاثم عند قدميك أريد أن تنفث في حياتي البساطة والنقاوة كنغم ساحر انبعث من نايك

— ٨ —

إن الطفل الذى تثقله مطارف الإمارة ، وتزينه القلائد الذهبية ، لا يجد اللذة في ألعوبته لأنه يرسف فى قيود من ثيابه

وهو ينزوى عن العالم خشية أن تتلوث أو تتعفر ، فهو يخاف كل شيء حتى الحركة

أيتها الأم ! لا تثقلى ابنك بالزينة فهى تحجبه عن تراب الأرض الصحى ، وتسلبه من النهج القويم الذى يقوده إلى البهجة العظمى فى حياة الانسان العامة

— ٩ —

يا لحق الغبي الذى يحاول أن يحمل نفسه على كتفيه إن كدّه السير ! يا لغفلة الشحاذ الذى يقف أمام باب داره يستكف

ألق ما أثقلك بين يدى من لا يثقله أن يحمل كل شيء ، ثم لا تلتفت إلى وراء فى حسرة

إن أمانيك تطفئ بأنفاسها نور السراج . حرام أن تأخذ ما ليس لك بيدين آثمتين ، ولكن خذ ما أعطيت فى قناعة ورضا

— ١٠ —

هنا آثار سيرك ؛ وهناك تطمئن قدماك ... هناك حيث يعيش الفقير والوضيع والضائع

وإذا سجدت لك فجبهتى لا تبلغ الأعماق حيث تطمئن قدماك بين الفقير والوضيع والضائع

إن الكبرياء لن تبلغ موطئ قدميك وأنت تتهادى فى ثوب من التواضع بين الفقير والوضيع والضائع

إن قلبي لا يجد السبيل إلى حيث تصحب من لا رفيق له بين الفقير والوضيع والضائع

— ١١ —

دع عنك التراتيل والأغاريد والتسابيح ! من الذى تتحنث له فى هذا الخلاء المظلم من متعبّدك وبابك مغلق ؟ افتح عينيك فلن تجد إلهك أمامك !

إنه هناك عند الفلاح وهو يعزق الأرض الصلبة ، هو عند العامل وهو يحطم الصخور القاسية ؛ إنه بإزائهما تحت حرور الشمس ووابل المطر ، ولباسه معفر بالتراب . اخلع طيلسانك المقدس واهبط مثله إلى تراب الأرض

التواكل ؟ أين هو التواكل ؟ إن إلهنا نفسه قد أخذ نفسه — فى لذة — بأن يتكفل عباده ؛ وهو بيننا إلى الأبد

انزع عنك تأملاتك ، ودع أزهارك وبخورك ! ماذا يضيرك إن مزقت ثيابك ولوّثت ؟ أخرج إليه ، وقف بازائه كادحاً والعرق يرفضّ من جبينك

— ١٢ —

إن سفرى بعيد وطريقه طويل

لقد انطلقت عند أول شعاع من النور ، واندفعت أضطرب فى أنحاء العالم الموحش أرى هدًى أسرى بين النجوم والكواكب

إنها مسافة أطول مما يخيّل إليك ، وهى تجربة قاسية تنتهى إلى السهولة ... إلى لحن

إن المسافر يضطر إلى أن يقرع كل باب ليتعرف بابه هو ، وهو يضرب فى أرجاء الأرض ليصل — فى النهاية — إلى المحراب العظيم

لقد انطلق بصرى يطوق العالم قبل أن أحشدهم وأغلق عليهم الباب ثم أقول : « ها أنتم هنا ! »

ودوت الصيحة : « أوه ! أين ؟ » ثم ذابت الصيحة إلى عبرات تتدفق ؛ ثم غمر الأرض سيل من الإيمان ينادى « أنا ! »

كامل محمود حبيب

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً